العرب
الثلاثاء 2019/08/06
السنة 42 العدد 11430

رسامة كاريكاتور تتحدى القيود وترسم معاناة سكان إدلب

أماني العلي صوت المرأة السورية الصادح أمام الدم والسواد والدمار

ثلاثة ألوان فقط، لكنها معبرة

كان ولا يزال فن الكاريكاتير، فنا ذكوريا بامتياز، وهو الذي تُجابه السلطات فاعله بالقمع والتهميش والإبادة أحيانا كحال ناجي العلي (حنظلة)، فكيف يكون الأمر مع امرأة اختارت الطريق الوعر لتنتقد عبر الفن الضاحك الباكي وضع بلدها سوريا، الجرح النازف إلى حين، هنا حوار مع رسامة الكاريكاتير السورية أماني العلي التي اخترقت حاجز الصمت بالرسم.

دمشق – تخطّ أماني العلي بقلم ضوئي رسما كاريكاتوريا على لوح رقمي تظهر من خلاله مشقات الحياة اليومية في محافظة إدلب في شمال غرب سوريا، التي تعدّ واحدة من آخر المناطق الخارجة عن سيطرة قوات النظام السوري.

وتقول أماني (30 عاما) وهي ترتدي سترة حمراء طويلة وعلى رأسها حجاب أبيض اللون "هدفي أن أسلّط الضوء.. على قضية معينة تزعج أهالي المناطق المحررة".

وتضيف "أحاول أن أقف في صفهم وأن يعبر الرسم عما يشغلهم، لأنقل ما يشعرون به ولا يتمكنون من قوله".

> الرسومات تتحدى القيود الاجتماعية للإضاءة على القضايا المعيشية في المناطق الواقعة تحت سيطرة الفصائل

وتسيطر هيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقا) على محافظة إدلب التي تؤوي ثلاثة ملايين نسمة، كما توجد فيها فصائل إسلامية ومعارضة أقل نفوذا.

وتعرّضت المنطقة منذ نهاية نيسان الماضي لتصعيد عسكري من قبل قوات النظام وحليفتها روسيا. إلاّ أن دمشق أعلنت موافقتها على هدنة دخلت حيز التنفيذ، منتصف ليل الخميس الجمعة، وغابت بموجبها الطائرات الحربية. وتتعرض الهدنة لخروقات جراء تبادل القصف بين قوات النظام والفصائل.

وتسعى أماني من خلال رسوماتها إلى تحدّي القيود الاجتماعية للإضاءة على القضايا المعيشية في المناطق الواقعة تحت سيطرة الفصائل، مع حرصها على توجيه انتقادات لاذعة للنظام الذي تعارضه وللمجتمع الدولي الذي تجده صامتا أمام ما يحصل في منطقتها.

وفي أحد رسوماتها بعنوان "العيد في إدلب"، تلقي طائرات حربية قذائف مغلفة بأوراق سكاكر، بدلا من الحلويات التي عادة ما توزع خلال الأعياد.

وفي رسم كاريكاتوري آخر، تتساقط القذائف الحمراء على إدلب في ما يبدو شخص يمثل المجتمع الدولي وهو يرمي شعار "الإعجاب" المعتمد على موقع فيسبوك إلى جانب طفل يحمل الراية البيضاء.

وتعتمد أماني العلي في رسوماتها على ثلاثة ألوان هي الأحمر والأسود والأبيض، وتعزو ذلك إلى أن "هذه هي الألوان الأساسية التي نعيش فيها، لا نرى سوى الدم والسواد والدمار".

وأسفر التصعيد العسكري في إدلب منذ نهاية أبريل عن مقتل أكثر من 790 مدنيا، وفق حصيلة للمرصد السوري لحقوق الإنسان، رغم أن المنطقة مشمولة باتفاق روسي تركي يعود إلى سبتمبر الماضي. وهو ينصّ على إنشاء منطقة منزوعة السلاح تنسحب منها الفصائل الجهادية، إلاّ أنه لم يتم استكمال تنفيذه. واشترطت دمشق، الخميس، على الفصائل تنفيذ الاتفاق للموافقة على وقف إطلاق النار. وسخرت أماني من هذا الاتفاق في رسم هو عبارة عن بقعة دماء كُتب فوقها "اتفاق إدلب". وأماني العلي شغوفة بالرسم منذ صغرها، إلا أن التقاليد والقيود الاجتماعية في المجتمع المحافظ في إدلب وقفت عائقا أمامها.

وعند اندلاع النزاع في العام 2011، كانت قد أتمّت دراستها في معهد هندسة الكمبيوتر، وتعمل كمدرسة رسم في مدرسة خاصة لتبقى قريبة من الهواية الأعزّ على قلبها.

وتقول أماني "أعتبر نفسي فتاة كسرت العادات والتقاليد.. كسرت الحاجز"، مضيفة "واجهت أهلي واستطعت أن أفرض عليهم الحياة التي أريدها لنفسي".

ولا يتقبّل المجتمع المحافظ الذي تعيش فيه أماني بسهولة انخراط النساء في الحياة السياسية عبر الفن والكاريكاتير. إلاّ أنه بعد سيطرة الفصائل على إدلب في العام 2015، بدأت هذه الشابة حياة جديدة وتحوّلت شيئا فشيئا إلى رسامة كاريكاتير. وباتت رسوماتها تعرض اليوم في معارض في هولندا وبريطانيا. وتقول أماني "أتمنى أن أواصل وإن كان جزءا بسيطا جدا من معاناة المدنيين".

وعدا عن انتقاداتها الدائمة للنظام السوري، توجه أماني قلمها لتلاحق "أخطاء" الفصائل المسيطرة على إدلب، خصوصا هيئة تحرير الشام.

وفي أحد رسوماتها، يظهر رجل بلحية سوداء وعباءة سوداء وهو يضع حقنة في أذن شخص، بينما تخرج من أذنه الثانية عبارة "حرام.. حرام".

وانتقدت أماني أيضا كثرة الضرائب المفروضة على المواطنين في إدلب، فضلا عن غلاء الأقساط المدرسية. ويظهر في أحد الرسومات رجل في قارب وعلى الجهة المقابلة منه شارة الدولار وهي تُغرق القارب من ثقلها، وأرفقت الرسم بعبارة "التعليم الجامعي في المناطق المحررة". وتوضح أماني العلي "لا أنتقد فصيلا بعينه، أنتقد التصرف الذي قام به لأسلّط الضوء على الخطأ".

وتضيف "نحارب منذ ثماني سنوات لنتخلص من عادات وأفعال النظام.. وبعض رواسب النظام لا تزال موجودة وعلينا التخلّص منها".

وتمسك هيئة تحرير الشام بزمام الأمور إداريا وسياسيا في محافظة إدلب حيث تفرض قيودا وشروطا على قطاعات واسعة فيها من الأمن إلى التعليم. ويتهمها ناشطون بقمع حرية التعبير وملاحقة منتقديها، وقد اعتقلت مرارا ناشطين معارضين لها. وتقول أماني "أسلّط الضوء على هذه القضايا وإن كان من الممكن أن تعرضني للخطر".

وحظيت أماني بفضل رسوماتها بالكثير من المعجبين، لكن أيضا الأعداء. وتقول "لم أتعرض لمضايقات، لكن تصلني رسائل تنبيه كثيرة: انتبهي لنفسك، لا تعرفين ماذا تفعلين، خففي قليلا غدا يعتقلونك". إلاّ أنّ أكثر ما تسمعه هو "أنت فتاة ولا يجوز أن ترسمي بهذا الشكل".

وبعكس الداخل، حازت أماني بإعجاب الكثيرين خارج البلاد، في دول لم تتمكن من زيارتها وإن كانت رسوماتها عرضت فيها. وتقول "خلال معرضي في بريطانيا، تفاجأ الكثير من الجامعيين البريطانيين بفتاة ترسم تحت حكم جبهة النصرة".

وصحيح أن إمكانية مشاركتها شخصيا في معارض خارج البلاد ضئيلة جدا، إلاّ أنها تأمل أن تتمكن من كسر الصورة النمطية الشائعة عن النساء في شمال غرب سوريا، لناحية أن "لا صوت لهنّ، ولا يخرجنّ من منازلهنّ ويرتدين فقط الأسود".

وتقول أماني العلي "نحن لسنا كذلك، نعيش ونرسم ونمارس حياتنا الطبيعية". وتختم قائلة "صحيح أننا نقوم بذلك ضمن حدود، لكننا نقاوم لنعيش".

ابتكارات المبدعين اللغوية بين اللبق والبذيء

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

من أهمّ الخصائص التي يتميز بها كبار المبدعين، في جميع حقب التاريخ، وفي مختلف آداب الأمم، هي ابتكاراتهم اللغوية، وقدرتهم الخارقة على نحت لغة خاصة بهم وحدهم. هكذا كان حال هوميروس في أدب الإغريق، والجاحظ والتوحيدي والأصفهاني ومؤلف أو مؤلفي "ألف ليلة وليلة"، والحريري في مقاماته، في الأدب العربي على سبيل المثال لا الحصر. ومن مختلف لهجات المقاطعات الإيطالية، ابتكر دانتي تلك اللغة المشرقة والبديعة التي بها كتب عمله العظيم "الكوميديا الإلهية". ومن وحي الديمقراطية الأميركية الناشئة، ولد والت ويتمن لغة جديدة نضرة ومشرقة بها كتب ملحمته الشعرية البديعة "أوراق العشب".

وفي القرن العشرين، تعددت الابتكارات اللغوية في مختلف آداب الأمم.. ففي بعض الفصول من رائعته "أوليسيس"، لم يتردد جيمس جويس في ابتكار لغة مستوحاة مباشرة من لغة السوقة، والبحارة الذين يحلو لهم ترديد العبارات والكلمات الفاحشة والبذيئة وهم يسكرون في الحانات الدبقة، أو يرتادون بيوت الدعارة. وهذا ما لم يرق لفيرجينا وولف. لذا وصفت "أوليسيس" بـ"ركام من الفحش والبذاءة".

وبفضل شقاء الطفولة، والتجارب المريرة التي كابدها في السجن، تحوّل الفرنسي ألفونس بودار إلى كاتب مرموق تماما مثلما هو الحال بالنسبة لجان جينيه. ومن وحي سيرته المعذبة، أصدر العديد من الروايات التي حصلت على جوائز هامة، وترجمت إلى جل لغات العالم.

وكان ألفونس بودار قد قرأ في السجن رائعة لوي فارديناند سيلين "سفرة إلى آخر الليل". وفي نفس اللحظة التي أنهى فيها هذه الرواية التي رسمت صورة مرعبة لمصير الإنسانية بعد الحرب العالمية الأولى، شعر أن الأدب لا يمكن أن يكون "مغلقا على ذاته" بأيّ حال من الأحوال، مُعَاينا في ذات الوقت أن لغة سيلين تختلف عن لغة كل الكتب التي قرأها حتى ذلك الحين. وهي لغة لم تكن مألوفة من قبل، إذ أنها تستمدّ قوتها وشاعريّتها من لغة الشوارع والأسواق والأماكن الخلفية في المدن الكبيرة.

وكان الكتاب الفرنسيون الكبار يتحاشون استعمالها باعتبارها لغة "العوام" و"السوقة"، لذا نحن لا نعثر على أي عبارة أو مفردة من هذه اللغة في مؤلفات معاصري سيلين أمثال جان بول سارتر، وأندريه جيد، وفرانسوا مورياك، وألبير كامو وغيرهم. وحده لوي فارديناند سيلين خاض المغامرة بالكثير من الجرأة والتحدي، مُحققا نجاحا هائلا، وكاشفا عن نضارة اللغة اليومية، وشاعريتها، وجاعلا منها لغة "خضراء" بحسب تعبير ألفونس بودار.

وكان جان جينيه الذي أمضى سنوات طويلة في السجون، مُختلطا بعتاة المجرمين واللصوص، قد تجنب في رواياته، كما في مسرحياته، استعمال مفردات وتعابير اللغة اليومية. وكان يبرّرُ ذلك قائلا بأنه اختار الكتابة بلغة كلاسيكية رفيعة لكي يثبت لـ"العدو" الذي سجنه وعذبه استنادا إلى قوانينه ومؤسساته الرسمية، أنه قادر على إتقان لغته الراقية التي يخفي وراءها قبحه ورياءه ونفاقه. وكان جان جينيه يردد دائما بأنه يحبّ أن "يحارب العدو بسلاحه".

وفي مصر، تجرأ كتاب أمثال نعمان عاشور، ويوسف إدريس، وعماد الديب، وإبراهيم أصلان، وسعيد الكفراوي وآخرون على استعمال اللغة اليومية ليفلحوا في ذلك إلى حد كبير، نازعين عن اللغة الكلاسيكية قداستها، وهيبتها.

أما نجيب محفوظ فقد حافظ على استعمال اللغة الكلاسيكية حتى في الحوارات لكي يكون، بحسب تعبيره، "مفهوما من قبل كل القراء العرب".

وفي مصر أيضا أحرز شعراء يكتبون بالعامية مثل عبدالرحمان الأبنودي، وصلاح جاهين، وفؤاد حداد، وفؤاد نجم وآخرون على شهرة تعلو أحيانا على شهرة كبار شعراء بلادهم المتمسكين بالفصحى.

وفي روايتيه البديعتين "عرس الزين" و"بندر شاه" جعل الطيب صالح من اللغة السودانية اليومية لغة "خضراء"، مشرقة بالشعر، وبأنغام الحياة في انسيابها البديع. وخلال سهرة معه في مطعم إيطالي بميونيخ الذي كان يزورها لتقديم رائعته "موسم الهجرة إلى الشمال" بعد أن تمّ نقلها إلى لغة غوته، فاجأني الطيب صالح، إذ أنه راح ينشدني أشعارا شعبية سودانية، مُفسّرا لي معانيها، ومقارنا إياها بروائع من الشعر العربي القديم، ومن الشعر الإنكليزي في الزمن الرومانسي.

وفي آخر السهرة قال لي "أظن أن اللغة العربية بحاجة إلى لهجات كل بلد عربي لكي تجدّد نفسها بنفسها، وتتحرّر من البلاغيين الذين يرغبون في حبْسها داخل قواميسهم ونواميسهم لكي تموت مختنقة في النهاية".

وفي تونس، خيّرَ محمود المسعدي الكتابة بلغة كلاسيكية لا تكاد تختلف عن لغة المتصوفة، وأبي حيان التوحيدي، وابن المقفع. وبذلك أعاد لتلك اللغة إشراقتها التي كانت قد فقدتها، بحيث لم تعد قادرة لا على تسمية الأشياء بأسمائها، ولا على ملامسة الواقع بعد أن "حنّطها" فقهاء وبلاغيو عصور الانحطاط.

وربما فعل المسعدي ذلك تحديا للاستعمار الفرنسي الذي كان يعتبر اللغة العربية لغة "ميتة" تماما مثلما هو حال اللغة اللاتينية. ولعله فعل ذلك أيضا لكي يثبت للتونسيين الذين بدأوا يشككون في قدرتها على مواكبة العصر، أن اللغة العربية لا تزال تتمتع بنضارتها وإشراقتها القديمة.

ومع ذلك، لم تمنع بلاغة المسعدي بعض الأدباء المعاصرين له مثل علي الدوعاجي من استعمال الدارجة التونسية في قصصه وأزجاله بهدف "تطعيم" اللغة الكلاسيكية بمفردات وتعابير جديدة توثّقُ صلتها بالواقع وبالعصر. وكذا فعل الروائي الكبير البشير خريف في جلّ أعماله الروائية والقصصية، مؤكدا بأن اللغة اليومية لا تقل قيمة وقوة ونضارة عن لغة الضاد.

وراهنا أصبح العديد من الكتاب العرب مشرقا ومغربا يقبلون على استعمال تعابير ومفردات اللهجات الدارجة. وظني أن هذا إثراء للغة العربية وليس اعتداء عليها كما يزعم حرّاس البلاغة الركيكة والجامدة.

الأدب لا يمكن أن يكون مغلقا على ذاته (لوحة للفنان تمام عزام)

القاهرة السينمائي يهدي دورته الـ41 ليوسف شريف رزق الله

القاهرة - أعلن مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، إطلاق اسم الناقد الراحل يوسف شريف رزق الله على دورته القادمة التي تقام نهاية العام الجاري.

وتوفي رزق الله في يوليو الماضي عن عمر ناهز 77 عاما تاركا إرثا كبيرا من البرامج التلفزيونية التي ساهمت على مدى عقود في تنمية الوعي الثقافي والسينمائي.

وقالت إدارة المهرجان في بيان إنها تهدي الدورة إلى رزق الله "تقديرا لما قدمه من عطاء على مدى 32 عاما منذ اختياره سكرتيرا فنيا للمهرجان عام 1987 ثم مديرا فنيا عام 2000 وحتى رحليه".

وتقام الدورة الحادية والأربعون من المهرجان في الفترة من 20 إلى 29 نوفمبر المقبل.

ونقل البيان عن المنتج والسيناريست محمد حفظي رئيس المهرجان قوله "اسم يوسف شريف رزق الله سيظل مرتبطا بأذهان محبي الفن السابع وجمهور ورواد مهرجان القاهرة السينمائي للأبد".

وأضاف أن "الفترة المقبلة ستشهد الإعلان عن حزمة من القرارات والمبادرات تضمن استمرار تكريم اسم رزق الله في كل دورات مهرجان القاهرة القادمة وليس الحادية والأربعين فقط".

وأشار إلى أن اللجنة الاستشارية العليا للمهرجان اتفقت في آخر اجتماع لها على إبقاء اسم رزق الله مديرا فنيا للدورة القادمة مع تكليف نائبه أحمد شوقي بإدارة كافة الأمور الفنية المتعلقة بالدورة المرتقبة.

وعلق الكاتب أحمد رزق الله نجل الناقد الراحل على قرار مهرجان القاهرة السينمائي بالقول إن والده جمعته علاقة تاريخية مع المهرجان امتدت إلى أكثر من 30 عاما، توجت بتكريم أثلج صدره العام الماضي في افتتاح الدورة الأربعين لحدوثه، وهو على قيد الحياة".

وأضاف أن أسرة رزق الله تشعر بالامتنان والسعادة تجاه قرار إدارة المهرجان بإطلاق اسم والده على الدورة الحادية والأربعين.